

التداخل البراغماتي بين النص السردي المعاصر و التراث

دراسة في رواية مملكة الزيوان لـ (الحاج احمد الصديق)

**PRAGMATIC INTERFERENCE BETWEEN CONTEMPORARY
NARRATIVE TEXTS AND PATRIMONY**

Case Study of El Haj Ahmed El Seddik's Novel " Mamlakat Al Ziwan "

أحمد فندو، طالب دكتوراه .

M'hmmmed FOUNDOU, PhD student

جامعة طاهري محمد بشار، مخبر الدراسات الصحراوية

Tahri Mohammed University- Bechar

تاريخ القبول: 2021/05/07

تاريخ الإرسال: 2021/03/04

Abstract:

This research paper aims at questioning Mamlakat Al Ziwan's text.

A literary questioning is carried out according to the laws of literary narrative features in order to determine limits of exploiting Touat region's popular patrimony. In achieving such a goal, we will consider supports which the author used to build his novel's text and construct its narrative sections. Then, we will uncover the style that wove the studied popular patrimony, either in its material parts or immaterial ones. Added to that, descriptive bases and main features of the text's final profile will be identified. This latter is composed by a set of multiple elements which appear in says, deeds, places, times, etc. All the studied aspects lead us to determine pragmatic and utilitarian commons shared between the contemporary text and patrimony texts.

Keywords: Pragmatics, text, narration , contemporary, patrimony

ملخص:

تهدف ورقة هذا البحث، إلى مساءلة نص مملكة الزيوان، مساءلة أدبية في إطار قوانين و خصائص السرد الأدبي؛ إذ يرام من خلالها؛ الوقوف عند حدود توظيف التراث الشعبي التواتي، باعتباره أحد الروافد والمنتكآت التي استند عليها الراوي في بناء نص الرواية، و تركيب أهم الفصول السردية فيه. ثم الكشف عن أسلوب نسج هذا الموروث الشعبي؛ بشقيه المادي وغير المادي، وبيان أهم الأسس المعتمدة في وصفه، ثم تحديد أهم مميزات ملمحه النهائي في النص، والذي تشكله جملة من العناصر المتعددة، والتمظهرة في الأقوال والأفعال، والأمكنة والأزمنة وغيرها... و ما يتولد عن ذلك من براغماتية و منفعة متبادلة بين النص وهذا الموروث.

الكلمات المفتاحية: البراغماتية ، النص ، السرد ،

المعاصر ، التراث

1. مقدمة:

بيئة القارئ دون اهتمام؛ إلا أنه يتحول بفعل الانزياح الذي تتركز عليه لغة السرد في النص إلى صور منسوجة بألفاظ و عبارات يسعى الكاتب كل السعي لأن تكون مدغدة لمشاعر القارئ ومؤثرة في أحاسيسه، و ملامسة لوجدانه.

إذا ما هي مهمة التراث بالنسبة للنص؟ - وما هي مهمة النص بالنسبة للتراث؟. سؤالان يحملان إشكالية البحث ، نعتمد في الإجابة عنهما بمقاربة وصفية تحليلية، نعالج من خلالها العناصر التالية:

- 1- التراث و الموروث : جدلية الدال و المدلول
- 2- التراث و النص
- 3- اللهجة التواتية و انتماء النص
- 4- المثل الشعبي و بناء الحوار في مملكة الزيوان
- 5- تراثية طقوس الفرح و الحزن في مملكة الزيوان
- 6- رمزية المكان التراثي في النص.
- 7- خاتمة

2. التراث و الموروث: جدلية الدال و المدلول:

تقوم دلالة التراث و الموروث في الذهن على جدلية تركيبية، تتلشى ما إن نقف عند حدود اللفظتين. و قد ورد التباين في المعنى بينهما في عدة مصنفات قديمة منها

تحيل كلمة التراث إلى عناصر مادية وأخرى غير مادية، حيث تتمثل فيما ترك السابقون عبر الزمن الماضي. فإذا تحدثنا في هذا السياق على (براغماتية) تداخل التراث و النص السردية، فإننا في هذه الحالة لا نسعى إلى الوقوف عند مقابلة نص جديد بنص قديم في إطار ظاهرة التناص فحسب، بل نسعى إلى البحث عن جملة من أصناف التراث الموظفة في نص مملكة الزيوان، ومدى تأثيرها فيه، وتأثرها به بحسب ما تسمح به ورقة هذا البحث، والمقصود هنا كل أنماط و أشكال التراث. شفهيًا كان أو مكتوبًا، ماديًا أو معنويًا، أفعالاً أو أقوالاً، مكاناً أو زمناً، وكل ما له صلة بالعادات والتقاليد، وكل ما ينطبق عليه وصف التراث. فنكون بذلك أمام صياغة؛ مهمة النص بالنسبة للتراث، وصياغة مهمة التراث بالنسبة للنص. فإذا كان النص السردية له سبق الذكر بعد هذا التآلف والتداخل، فلتراث مكانته وقيمتها الملازمة في السلم الزمني المستمر، فقيمة النص وجماليته، من قيمة التراث وجماليته، كواقع ملموس و محسوس لدى الفرد و الجماعة، إلا أنه قابل للتصوير في أجناس و أساليب فنية متعددة، فهو بذلك قابل للصياغة. فيصبح النص القصصي أو الروائي كفيل باحتضان هذه الصيغة متجاوزاً بها حدود المألوف، حيث تتجسد في صور غير التي تعوّد عليها المتلقي فتكون بذلك مدعاة عنده للذة والاستئناس. وعلى الرغم من أن هذا الموروث قد يعاش ويوظف يومياً في

المعاجم اللغوية. يقول عبد السلام محمد هارون: « ما أحوجنا و نحن نتحدث عن تحقيق التراث أن نحقق كلمة (التراث)، فلسنا نجد في مواد لغتنا العربية مادة (تراث)، كما أنه ليس في معاجمنا العربية من المواد المبدوءة بالتاء و المختومة بالتاء المثلثة إلا ثلاث مواد، لا تزيد و لا تنقص»⁶ وهذه المواد في رأي عبد السلام هارون أن أصلها واو و قد قدم في ذلك دلائل وقرائن؛ مستندا على معاجم اللغة العربية كالأتي:⁷

_الأولى: مادة (تفت)، ومما ورد فيها من نصوص ما جاء في القرآن الكريم « ثم ليقتضوا نفثهم». و قضاء النفث يعني به إذهاب الشعث و الدرن... .

_ و الثانية مادة: (تلت) و فيها لفظ واحد: التليث: ضرب من نجيل السباح

_ و الثالثة مادة توت، و لم يرد فيها إلا لفظ واحد كذلك، و هي لغة ضعيفة في التوت ، تلك الثمرة الطيبة المعروفة.

ومحدودية هذه الكلمات وقلة الاشتقاق فيها مرده إلى أن الحرف الأول فيها (التاء) ليس أصلا ككثير من الألفاظ أين تبدل الهمزة بالواو والعكس أو التاء بالواو، وهذا ما بينه عبد السلام هارون بالشرح كما ذكرنا آنفا مستندا على ما جاء في المعاجم اللغوية حيث يقول: «وهنا يتدخل التراث الصربي، الذي يقضي بأن بعض الكلمات المبدوءة بالتاء قد تكون تأوها مبدلة من الواو،

و حديثة من حيث التوظيف والاستعمال. و لغة اللفظين جاءت في لسان العرب من الجذر: (إ.ر.ث) « و الإرث : الأصل. قال بن الأعرابي: الإرث في الحسب والورث في المال. وحكى يعقوب: إنه لفي إرث مجدٍ و إرف مجدٍ، على البدل. الجوهري: الإرث الميراث ، و أصل الهمزة فيه واو. يقال هو في إرث صدق أي في أصل صدق ، و هو و هو على إرث من كذا أي على أمر قديم توارثه الآخر عن الأول ، و في حديث الحج ، إنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم ، يريد به ميراثهم ملته»¹ إذا كانت الهمزة أصلها واو فيما سبق فهل تتغير دلالة بنية هذا الأصل ؟

والقصد الجذر: (و.ر.ث): « ورثه ماله و مجده، و ورثه عنه ورثا ورثه و وراثه و إراثه. أبو زيد: ورث فلان أباه يرثه وراثه و ميراثا و ميراثا. و أورث الرجل ولده مالا إراثا حسنا. و يقال: ورثت فلانا مالا أرثه ورثا و ورثا إذا مات مورثك ، فصار ميراثه لك.»² غير أن ابن الأعرابي ي لا يرى فرقا بين (الإرث)، و (الورث) إذ يقول: « الوَرِثُ وَالْوَرِثُ وَالْإِرْثُ وَالْوَرِثُ وَالْإِرْثُ وَالْوَرِثُ وَالْوَرِثُ واحد»³ أي أنها تحيل على الدلالة نفسها. أما بن سيده؛ فيفرق بين اللفظتين إذ يقول: « الوَرِثُ و الميراث في المال و الإرث في الحسب»⁴ فالأول دلالة على ورث مادي و الثاني دلالة على إرث معنوي. و قد وردت لفظة (التراث) في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَ تَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴾⁵ و التراث لفظة لا تتكرر في المصحف الشريف، كما أنها كلمة نادرة حتى في

المعنوي حيث قال سبحانه و تعالى ﴿وَوَرَّثَ سُلَيْمَانَ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾¹¹ فقد ورث النبي سليمان عن أبيه العلم والحكم والنبوة وهذا الشق المعنوي كما ورث الملك وهذا الشق المادي « يقول تعالى ذكره : ((و ورث سليمان)) أباه ((داود ((العلم الذي كان آتاه الله في حياته ، و الملك الذي كان خصه به على سائر قومه ، فجعله له بعد أبيه دون سائر ولد أبيه¹² هذه دلالة التراث كما وردت في القرآن الكريم. و في المصادر اللغوية، و هي وصف عام نريده بشيء من الخصوصية، و الخصوصية هنا هي مظهر التوظيف في النص السردي. لذا نطرح السؤالين التاليين : كيف يتمظهر التراث في النص السردي ؟ و متى يكون جزءا ذا صلة ببنائه اللغوي؟

3. التراث و النص:

عندما نقول التراث و النص نقصد بها العلاقة التي تجعل من التراث جزءا من النص السردي، و هذه العلاقة لا تكون إلا في حالتين؛ الحالة الأولى تندرج ضمن ظاهرة التناسل أو التضمين و بها يكون التراث متداخلا نصيا مع النص السردي ، حيث يكون جزءا منه من ناحية البناء اللغوي. أما الحالة الثانية و التي لا يكون التراث متداخلا مع النص، و لكن يكون موصوفاً بلغة النص مثل الأماكن و الأزمنة و العادات و التقاليد و المعتقدات، التي لا يمكن ترجمتها إلى رموز لغوية إلا بالوصف. فقد استهل نص مملكة الزبوان

كالتخمة، وهي الأزمة الناشئة من ثقل الطعام. فقالوا: أصلها ((وجمة)) فلذا نلقاها في مادة (وجم) لا (تجم). وكذلك (التهمة) نجدتها في (وهم)، و مدلولها أن المرء يتوهم أن أحاه قد أساء أو تجاوز حداً من الحدود. ونحوها التكلان، أصلها الوكلان، أي الاعتماد على وكيل. و كذا (تتر) أصلها وتثرى من التواتر ، و ((التقى)) ، و ((التقية)) و ((التقوى)) كلها مأخوذة من الوقاية⁸ وقد يعود هذا إلى تعدد لهجات العرب و اختلاف ألسنتها في بعض الألفاظ و قد جاء القرآن الكريم يحوي هذه اللهجات و هذا بما يفسر أن القرآن أنزل على سبعة أحرف .

و التراث الواردة في الآية الكريمة تدل على الموروث المادي الذي يخلفه المورث إلى ورثته و معنى الآية: « و تأكلون أيها الناس الميراث أكلا لما ، يعني أكلا شديدا لا تتركون منه شيئا و هو من قولهم : لممت على الخوان أجمع ، فأنا ألمه لما: إذا أكلت ما عليه فأنت على جميعه»⁹ و المال يورث كمحسوس مادي غير معنوي يحيل على الزمن الماضي بالرغم من الاستفادة منه في الحاضر بهذا يكون « التراث هو كل ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة، فهو إذن قضية موروث و في نفس الوقت قضية معطى حاضر على عديد المستويات»¹⁰ والتراث كلمة مطلقة لا يقصد بها شيئا بعينه ، فهي كلمة جامعة تتصف بصفة العنصر المشار إليه. وقد يكون هذا العنصر ماديا، أو قد يكون معنويا. و لآية الكريمة الموالية جمعت بين الإرث المادي و الإرث

هي عند شيخ الجان و قاضي قضاها ، المسمى الشيخ شمهرون و هو غير موجود حاليا. و طلبت منه أن ينتظرها لتبلغه طلبه و مراده ، فاخفت عنه فجأة ، لا يعلم لاختفائها شيئا سوى و كأن الأرض بلعتها.¹⁵ إن التنوع في مصادر التراث في النص فرضته جملة من العوامل أهمها بيئة النص التي هو منها و إليها فمن الخرافة إلى حديث العامة، إلى المثل الشعبي: « ربيتك يا أجريتي أو تاكليني»¹⁶ إلى التراث التاريخي الذي ترجم إلى مشاهد سردية تعكس اوضاع توات، فقد جاء على لسان الزيواني: « فبادر المعلم في التوضيح دون مقدمات، و قال لوالدي: هذه الورقة عمرها تسع سنوات هي شهادة إنسانية للتاريخ كتبها أحد الفرنسيين الباحثين، بمفوضية التجارب النووية، المدعو فرانسوا تيري ، لما كان بصدد إعداد التجربة النووية بجموديا رقان، و ما قاله فيها كالتالي:....»¹⁷ _أمثلة قليلة من أنواع كثيرة من التراث التي زخر بها نص مملكة الزيوان ، إين تشكلت في صورة غير التي ألفت.

4. اللهجة التواتية و انتماء النص:

تنبثق اللغة في نص مملكة الزيوان من عدة تيمات، مقدمة في شكل عجائبي أو سرد تاريخي أو مما وظف من موروث شعبي متنوع . مضاف إلى ذلك تعدد وجوه الشخصيات واختلاف مستوى الوعي لديها، و وصف الأمكنة، و تحديد الأزمنة الذي جعل من البناء اللغوي للنص يرفض لغة واحدة مهيمنة، قد تصطدم بحواجز

بوصف مسميات فولكلورية تحيل إلى أماكن محددة بتوات حيث قال الراوي: « على إيقاع رقاصية من رقاصيات زمار بوعلي الشجية بتوات الحنة (الوسطى) و تهليلات ليلية متموجة مقننة لأهليل تيميمون قورارة و مرجوعة تصفيقية منعشة من مرجوعات طبل إين بلبال بتدكلت.»¹³ وصف غايته إرساء هوية و حدود للنص بصبغة ثراتية ، تحيل إلى أقاليم توات الثلاثة.(قورارة، توات، وتدكلت).

يتموضع بناء نص مملكة الزيوان بين الغاية و الوسيلة، فقد شكل الحديث عن المخطوط أحد عناصر هذه البنية، فأضحى وسيلة لمعمارية النص و غاية للتعريف بالتراث التواتي. إذ يتضح ذلك في الوصف التالي: «و قد سنحت له الفرصة لأن يرى قراءة ما شاء الله له أن يرى من أوصاف الواصفين للجمال و فنون أذواقه بمخطوطات خزائن مملكتهم الزيوانية بقصور تمنطيط، و تليلان، و ملوكة، و زاوية كنتة، و زاوية الشيخ المغيلي، وأنجزمير، و أقبلي، و أولاد سعيد، و المطارفة...»¹⁴ ، كما شكلت قصة الجنية مروشة و عاشقها الشلالى الجانب الخرافي في النص. القصة التي مازالت تتداول على ألسنة العامة في الإقليم التواتي، فشخصية الدرويش هذه الشخصية الإنسية التي اخترقت البرزخ الذي يفصل بين عالم الأنس و عالم الجن يضعه الراوي وجها لوجه أمام الجنية مروشة في حوار بين سؤال و جواب: « بعدها قالت له أن قضيته تفوقها ، و لا تعلم عنها إلا عنواها و أن تفاصيلها في جداولها

و بما أن اللهجة التواتية لها خصوصياتها ومميزاتها، مثل: الحذف والنحت والإعلال، والقلب، والإبدال و التصغير و الترخيم²⁰ و كثير من الظواهر اللغوية الأخرى . فإنها تتصف أيضا بالاختصار و ترك الفراغات في حوارات و محادثات الأفراد، مما يدفع المتلقي إلى إعادة تركيب الجمل ذهنيا و هذا بإتمام البياض بالاعتماد على قرائن معنوية يعتمد عليها أثناء ممارسة الحوار ، هذه الطريقة في الفهم أطلق عليها (جيليان براون ، و جورج يول) في كتابهما ((تحليل الخطاب)): التماسك المعنوي في الخطاب و في هذا قالوا: « من أكثر المفاهيم الخاطئة انتشارا في تحليل اللغة، القول إننا نفهم معنى رسالة لغوية بالاعتماد فقط على الكلمات والجمل المستعملة لإبلاغ تلك الرسالة ، نحن نعلم دون شك على البنية النظامية وعلى المفردات المستعملة في رسالة لغوية للتواصل إلى فهم معين لها؛ و لكن من الخطأ أن نظن أننا نقتصر على الاعتماد على هذا الاستعمال الظاهري للغة لكي نفهم الرسالة.»²¹ كما تتصف اللهجة التواتية بصعوبة اللفظ و خاصة في بعض المسميات المحلية وهذا ما انتبه الكاتب إليه، فشرح هذه الألفاظ و العبارات بأسلوب مبتكر في السرد حين وضع إحالات لشرح كل لفظ قد يتعسر على القارئ فهمه، وتوضيح كل ما يعق فهم دلالة النص و تقويضها. و المقطع التالي من النص يوضح ذلك:²²

الله الله الله

يا سدي بوتدارة

تفرضها العناصر السابقة الذكر. هذه الحواجز قد تنأى بالسارد عن تحقيق الغاية التواصلية مع القارئ.

يمكن القول أن اللغة في مملكة الزيوان تظهر كموضوع من اللغة ذاتها، حيث تشكل لنفسها كياناً، أو شخصية داخل البناء السردى: « و إننا حين نتحدث عن اللغة لا نستطيع الحديث عنها إلا على أساس أنها كائن اجتماعي حضاري ينمو و يتطور بتطور المستعمل و بتطور الثقافة و المعرفة لدى المتلقي أيضا »¹⁸، فبذلك أصبحت اللغة فيها كفيلا بأن تبرز نفسها من خلال الانزياحات الطارئة على مستوى النص و خاصة جانب اللهجة التواتية، والتي سنركز على خصوصياتها و مميزاتها من حيث أنها مورثا شعبيا يدخل ضمن نطاق هدف الدراسة .

إن اللهجة كما جاء في لسان العرب من الأصل (لهج) و « اللّهجة و اللّهجة: طرف اللسان و اللّهجة جرس الكلام ، و الفتح أعلى، و يقال فلان فصيح اللّهجة و اللّهجة و هي لغته التي جبل عليها فاعتادها و نشأ عليها»¹⁹ و الفصاحة حسب التعريف تتصف بها كل لغة أو لهجة متقنة التوظيف عند صاحبها. و على الرغم من أن نص مملكة الزيوان جاء بلغة فصحي إلا أنه لم يخل من توظيف اللهجة المتداولة محليا في ألفاظ أكسبت النص انتماءه التواتي و خاصة عند العارف بمعجم الفاظ المنطقة.

في هذا الأسلوب في كتابة النص توجيهان، الأول:
توجيه القارئ نحو مفردات اللهجة التواتية و تقديمها له
بنوع من التبسيط ، و هذا لفهم دلالتها و من ثمة
الاستمتاع و الاستئناس بها أثناء القراءة ، أما توجيه
الثاني : نحو النص باعتبار أن كل مفردة غريبة عن ذهن
القارئ تشكل انزياحا لغويا داخل النص و هذا
يستدعي لذة و متعة أثناء قراءة النص.

يا من جاهك عند الله

أرجال الصبارة

جيت امهود لتوات

لقيت الزعفة ما أبقات

أدها بوريشات

أ- الإبدال في اللهجة التواتية وتوظيفه في

النص:

الإبدال من خصائص اللهجة التواتية حيث تتعدد
أنواعه حسب عدد الحروف و أنواعها. وقد تطرق أحمد
أبا الصافي جعفري في كتابه اللهجة التواتية للإبدال في
بشئ من التفصيل. و قد تم توظيفه و بعض الظواهر
اللغوية الأخرى في نص مملكة الزبوان

أولحت العار على مولانا

بعده نمت نوما عميقا ، فوضعتني في دنفاستي تحت

الخطير .

في هذه العبارات التي تستعملها الأمهات في منطقة
توات لمساعدة الصبية على النوم ، حيث رأى الراوي
ضرورة شرحها و تبسيطها للقارئ ؛ و هذا بالإحالة
عنها بما يلي:²³

● إبدال هاء الضمير، واوا:

يقول أحمد با الصافي جعفري في هذا الصدد: « من
أهم أجدديات اللهجة التواتية الجزائرية: إبدال (هاء)
الضمير واوا مثل كتابو بدلا من كتابه و قلبو بدلا من
قلبه... وكذا إبدال بعض الحروف بعضها البعض»²⁴
فقد وُظِّفَتْ مثل هذه الأمثلة في نص الرواية كضرورة ؛
لربط النص ببيئته الخاصة و مثال على ذلك ما ورد في
المقطع التالي من الرواية:²⁵

- و لي مشهور بتوات، يقع ضريحه و مرقد

بقصر يدعى إكيس بنواحي تامست

- لك جاه مقبول عند الله

- لو أنك من الرجال الصابرين

- عزمت السفر إلى توات

- و جدت سعف النخيل مخلوقا

- بوريشات ، كناية عن الجراد

- أوكلت أمري لله.

ب- التخفيف في اللهجة التواتية و تجلياته في

الرواية.

تعد ظاهرة التخفيف في اللهجة التواتية من الظواهر التي جرى عليها اللسان بالمنطقة تجنباً للأصوات الصعبة المخرج و خاصة عند الفئمة الأمية من المجتمع و نجد أكثر هذه الحروف تجنباً ؛ الهمزة و التي تقلب في كثير من الأحيان إلى ياء أو إلى عين ، لذا يصبح تداول الكلمة بشكلها المخفف كعرف لدى جميع فئات المجتمع . إذ ينقل الراوي في نص مملكة الزيان عينة من مفردات المجتمع التواتي و منها:²⁸

يا سدي بوتدارة

يا من جاهك عند الله

أرجال الصبارة

جيت امهود لتوات

لقيت الزعفة ما أبقات

أدها بوريشات

أولحت العار على مولانا

يلاحظ أن الفعل جئت الذي قُلبت همزته ياءً للتخفيف، حيث أصبح أجرى و أسهل في النطق على اللسان كعديد من الكلمات الأخرى التي قد يعثرها بعض الحذف للتخفيف و مثل ذلك ما جاء في

- فتبسمت والدتي ، و خالتي و قامو، فقالت قامو

لأمي .

لعقوبة إن شاء الله لفظامو

و زياتو و صيامو... و صيامو و عرسو

يلاحظ القارئ أن كلمة ، فظامو ، و زياتو ، و صيامو ، و عرسو ، جاءت محتومة بواو بخلاف أصلها بالفصحى أين ترد بهاء الضمير الذي يعود على الصبي في صيغة : صيامه ، و فظامه ، و عرسه.

• إبدال حرف بحرف

هو ظاهرة من الظواهر اللغوية التي تتميز اللسان التواتي، و إدراجها في نص الرواية ؛ يعد محاكاة للواقع الحوارية في المجتمع فعندما يقول الروي: « و أدخلتني في جوف ذلك الجلد من جهة بطنه و قد كان دخولي إليه كدخول نفاذ فقارة مظلمة »²⁶ أو فيما جاء في المثل الشعبي: « اللسان ما فيه عضم يا ولد بوياء »²⁷ يتجلى الإبدال في كلمة نفاذ و التي تنطق باللسان التواتي بدلا من نفاذ، و عضم بدلا من عظم ، وهي عينة من عديد المفردات التي تعثرها هذه الظاهرة و التي وظفت في النص، نظنها عن قصد فهي تكسب الحوار الشكل الذي يبنى عليه في حقيقة الأمر ، والنمط الذي تعود عليه اللسان في المنطقة. يبقى على القارئ أن يستصيح الشكل الذي قدمت فيه هذه المفردات ليستشعر بيئة النص.

النص و مفردات المثل دوغما تنافر أو خلل تركيبى فيها، و هذا يعكس دقة اختيار مواضع إدراج المثل و ملاءمته للحوار، و لتبيان ذلك نوجز بعض الأمثلة من الروية .

يقول الزيواني: « فبادر أكبر أعمام عند دخولهم بتهنئة مصطنعة لوالدي...، فقال لوادي و هو يعدل تكوير عمامته على رأسه التي كان فيها حجاب مُحَمَّر بارز في ثنيتها من الجهة الأمامية اليمنى فقال:

اللهم اجعله من العائشين

و العاقبة لإخوانه القادمين

و يقطع هذه السببية ...

التابعة التبعة القاطعة لحبل الخليفة...

فرد عليه والذي بابتسامه عريضة تكفي عن القول ... و قد كان ساعتها يتلّس ذقنه ، و عنفة شاربه و هو يقول في نفسه: (اللسان ما فيه عضم يا ولد بوبا) كم توسلتم بالصلاح من رجال توات حتى يبقى زيواننا في ضنايتكم»³¹ كان لابد من تقديم الشاهد على الرغم من طوله حتى نفهم الموقف الذي جعل الراوي يستنجد بهذا المثل (اللسان ما فيه عضم) و المثل يغني عن الاطناب في الحديث ، إذ جاء عوضا عن أجوبة لسلسلة من العبارات التي نطق بها العم، و دلالة المثل المذكور؛ تتجلى في أن القول ليس كالفعل في تحقيق المقاصد و المرام .

المقطع التالي على لسان الزيواني في النص: « خلال فترة تزيينها كانت عيشة مباركة قد أفرغت للتو من تحلال إزار أمي و قد كان إزار من المحمودي الأزرق»²⁹ قد تحيل كلمة (عيشة) الواردة في المقطع ؛ القارئ إلى دلالات غير التي يرومها الراوي ، بينما العارف باللهجة التواتية يدرك أن اسم عيشة ما هو إلا اسم العلم عائشة الذي حذف فيه ألف المد ثم قلبت همزته ياءً ، و بالتالي أصبح أخف على اللسان في النطق. ولم يوظف الراوي هذا الاسم المركب (عيشة مباركة) و إدراجه في النص بهذا الشكل المخفف ؛ اعتباطا ، و إنما القصد منها رسم الواقع و تقديمه للقارئ كما هو، خاصة في صفات الشخص و مسمياتها التي تمثل جزءاً من الواقع التواتي.

5. المثل الشعبي و بناء الحوار في مملكة الزيوان

المثل الشعبي شكل من أشكال التعبير الموجز، إذ يعكس تجارب الماضي للفرد و الجماعة ، حيث يذكر في مواقف و أحداث مشاهجة في الحاضر؛ للتدبر و أخذ العبر. " و الخصائص الأساسية في الأمثال بصورة عامة هي الاقتضاب و الوزن و السجع أو الجناس التام أو الناقص»³⁰ و إذا كان نص مملكة الزيوان يقدم صورة متعددة الألوان من المجتمع التواتي ، فإن المثل الشعبي جزء من هذه الصورة ، حيث نجده قد تحلل فصول الرواية ، فيما يتناسب و المواقف السردية فيها ، و يختلف باختلاف الوقائع و الصور الحوارية ، و لا شك أن القارئ يلحظ ذلك التوافق و الانسجام بين جمل

لبكائها و إن ما كانت تتعلل به دائما في نظرتها غير الرحيمة لمريمو ، أنها لا تغلق الدار ولا ترث»³³ من هنا جاءت مناسبة توظيف هذا المثل الشعبي بالشكل الذي يتناسب و خلاصة الحوار و ختامه بين الأم و قامو، فاختصر فيه مضمون الحوار في أسلوب بسيط و موجز بعيد عن الإطناب و التكرار. و به أحسنت والدة الزيواني في تقديم صورة المرأة في المجتمع التواتي على الرغم من أنها الأم وهي الزوجة، هي الأخت ، وهي الجدة، هي منبع المجتمع و أساسه، إلا أنها مذمومة ، صفة الضد التي وسمت بها منذ القدم إلى المجتمعات المتحضرة ، فصيغة المثل توحى بالضدية في التعامل مع المرأة. صيغة ناسبت الموقف السردى في النص حتى أن القارئ لا يلمس حدود التداخل بين المثل و النص ، حيث ينتقل بسلاسة بين مفرداته و مفردات المثل الموظف فيه. فهو بذلك النسيج المنسجم لبنية لغوية واحدة.

6. تراثية طقوس الفرح و الحزن في الرواية

من الغرابة أن يكون الحزن في ذاته ثوب يلبس و ينزع ، وله باب يوصد وأن تتركز إلى ظلماته فتحسه كائنا يلامس جسده. فتتحين الفرصة لتتسل منه، فتقيم له الطقوس فتغسله من جسده كما يغسل الدنس. في المشهد التالي يصور لنا الزيواني صورة للمرأة (الرابطة) حين تفتح الباب و تنزع ثوب الحزن عنها حيث يقول: « هناك خارج القصر الزيواني توجد حفرة الرابطة، التي تخرج إليها المرأة المتوفى عنها زوجها بعد

لا يستشهد بالمثل إلا إذا أثرت ذاكرة المستشهد بحديث يتلاءم و ذكر المثل ، ليصبح هذا الأخير كمجمل قول لما ذكر في عبارة أو عبارتين على الأكثر، حيث ينهي في كثير من الأحيان؛ الجدال الدائر بين المتحدثين، و موصل باب موضوع مفتوح مثلما حدث في الحوار التالي بين شخصية قامو و والدة الزيواني حيث قالت قامو: « نفوسة ربي يهدبها ، لولا البنت ما كانت ،هي، و ما كنت أنت، و ما كنت أنا، و ما كان أحد في الدنيا.

فقالت لها أمي:

إفكرك بالشهادة يا قامو.

فأسعفت الذاكرة والدتي و لخصت أمر مريمو و أترأها من بنات القصر ، المحبس على الذكور دون الإناث و استشهدت بمثل شعبي عندنا و قالت :

(البنت عندنا كي الرقبة موكولة أو

مدمومة)³²

إن استحضار هذا المثل و الاتكاء عليه في هذا الموقف السردى ، هو خلاصة لما تستشعره الام اتجاه ابنتها مريمو و انتقاص المجتمع من قدرها و مكانتها حتى من صنف جنسها و هذا ما يبينه الزيواني على لسان والدته في قوله: « فقالت أمي لقامو متحسرة على أختي مريمو: مسكينة بنتي مريمو، أصابها أكثر ما أصاب ولدي هذا؛ لكن عمته لم تقلق و لم تلتفت لوجعها، و لا

عقوبته حلول اللعنة و السخط، ونزول العقاب وارتفاع البركة و صد أبواب الخير. لذا تتواتر هذه المعتقدات من منطلق هذا الفكرة ، فتترسخ جذورها في المجتمع و تتشعب فتبقى دوام السنين و الأيام، ولا تتغير إلا بتغير في ذهنية الفاعل.

تتجمل النسوة لهكذا مناسبة معتمدة على شتى الوسائل لتظهر في أبهى حلة، حيث ينقل لنا الراوي مشهدا من هذه المشاهد واصفا لنا أدق التفاصيل، حيث يضعنا أمام الشخصية الموصوفة مباشرة في صورة واضحة المعالم و نلمس ذلك في المقطع التالي:»
أخرجت أمي شظية مرآة مكسرة شبه مطموسة من تدارتها كان والدي قد جلبها هي الأخرى من حموديا رقان، مع تلك القنينة التي كانت تضع فيها الكحل...و اكتحلت في عينيها بذلك المرود ، الذي كانت تكحل به عيني زمن النفاس و بعده ثم وضعت قطعة من المسواك و بدأت تلوكها في فمها ...و بعد أن لينت المسواك بأسنانها أخرجته عند مقدمة فمها ، و أخذته بطرفي أصبعها، وبدأت تمرره على شفثيها، مرة للشفة العليا و مرة للسفلى، حتى بدأت شفثاها تحمران كأن زعفرانا خفيفا مرر عليهما.³⁶ و صف دقيق لأدق الحركات عند المرأة وهي في حالة تزيين نفسها بمادة طبيعية لم تعد تستعمل إلا عند القليل منهن ، أو لم تعد نهائيا .

إن بلوغ المولود في منطقة توات يومه السابع، فرحة مضافة إلى فرحة مولوده، إين تتخللها مراسيم و طقوس

انتضاء عدتها. هي حفرة شبه عميقة من عمقها الأفقي. تشبه تماما مدخل الكهف أو مغارة مخيفة...بيد أن ما أعطى للمكان وحشة حقاً، هو تلك الثياب البالية المرمية و المحروقة بأشعة الشمس ، و التمام الكتانية و الجلدية العتيقة، و كذا الأقداح الطينية القديمة المكسرة و المتناثرة ، بين تلك الثياب البالية و التمام المحجبة، عند مدخل تلك الحفرة ، للرباطات اللاتمي فسخن ثياب عدتهن في السنين الخوالي من تاريخ القصر³⁴ هي صورة من صور الحزن عند المرأة المحلية، و التي تتخللها طقوس و عادات، بما يصبح للحزن معنى و دلالة. جسدا و كيانا ، يمكنك أن تلمسه في تلك الثياب البالية ، أوفي طقوس عدة إحداهن و هي تخرج رفقة جمع من النسوة إلى هذه الحفرة تحت و قع أهازيج خاصة بهذه المناسبة.

يستوي الحزن و الفرحة عند المرأة التواتية من حيث الطقوس و المراسيم، عدا اختلافهما في الإحساس و العاطفة؛ من هذا الجانب الفرحة لا تساوي الحزن . ومن مشاهد الفرحة مناسبة الخروج من النفاس و التي لا تكتمل إلا بإتباع المرأة فيها طقوسا معينة يصف الراوي جانبها منها : «أما أمي (يقول الزيواني) فخلال هذه الفترة فقد صعدت إلى غرفة بسطح بيتنا تدعى ثُقَالَة، و استحمت استحماما خفيفا، فوق حجرة الرحي³⁵» هل كان لا بد من الاستحمام على حجرة الرحي؟!، إلا

ما استدعته العادة و العرف الجمعي خاصة في العادات النسوية أين يصبح العدول عنها عدولا عن واجب ؛

خلال الملفوظ القصصي، فهو يملك صيغة استثنائية في الرواية، ينزاح عن المكان المعتاد ليتشكل كعنصر من بين العناصر المكونة للحدث الروائي.³⁹ فالفقارة هذا المكان التراثي و الشبه مغلق زيادة على أنه مورد للماء فهو رمز للحياة، رمز للابتكار و مقاومة قساوة الطبيعة كما أنه رمز لتاريخ فئة و عينة من المجتمع ساهمت في تجوّد الفقارة، وصيانتها لفترة طويلة من الزمن « مع منتصف الثمانينيات، ثم الاستقلال التام نهائيا بيننا و بين الداعلي، و سكن بيتهم الجديد بعد أن كان يسكن بمسكن الحاج عبد السلام، كما طلق والده معظم سباخنا، و لم يعد للفقاقير صيانة، ما جعل حالة القصر؛ تتدهور تدهورا مخيفا، من حيث تراجع منسوب الماء في الفقاقير بشكل رهيب ما جعل السباخ تستغيث وتبكي على أطلالها و على عصرها الذهبي، خلال الستينيات و السبعينيات.»⁴⁰ حسب وصف الراوي، الفقارة ليست مجرد اسم و مسمى، بل هي العطاء الدائم و الجهد المبذول منها ولها، هي رمز لفئة أسهمت في حياة رغبة لفئة أخرى في المجتمع التواتي .

ومن الأماكن التي تشد انتباه القارئ؛ حفرة الرابطة)، فالعجائبية التي تلف المكان اختار لها الراوي ما يناسبها من الألفاظ و العبارات، حيث جعل القارئ يعتقد ما يعتقد سكان القصر و يندمج معهم في أحاسيس الرهبة و الخوف. يقول الزيواني : « هي حفرة شبه عميقة من عمقها الأفقي تشبه تماما مدخل الكهف أو مغارة مخيفة ، المكان يفرض على المار كيفما

فرضتها العادة و التقاليد. و التسمية أو السبوع؛ تقام لها الأفراح و الولائم فيصيب المولود جانب من هذه الطقوس بما أنه المعنى. يقول الزيواني: « فذبح(مبارك ولد بوجمعة) الضحية المسماة خروف الدمان وأمره والذي بأن يعطي جلدها الأحمر المنقط بالأبيض لزوجته قامو، لتأتي به لأمي فمسكت أمي برجليّ لأعلى و رأسي لأسفل و أدخلتني في جوف ذلك الجلد من جهة بطنه و قد كان دخولي إليه كدخول نفاذ فقارة مظلمة حتى بلغت ثلثه أو يزيد ... لكي يطرد الضر عني.»³⁷ لا تتم الفرحة إلا بفعل هذه الطقوس الموروثة وقد أكد الراوي على فعلها بأمر الوالد دليل على تعمقها و تجذرها في المجتمع التواتي .

7. رمزية المكان التراثي في النص:

يعتبر المكان من أهم العناصر المعتمد عليها في السرد؛ باعتباره المسرح الذي تجري فيه الأحداث، و تتحرك فيه الشخصيات في النص السردى بصفة عامة. و مقارنة المكان في هذا البحث من خلال نص مملكة الزيوان هي مقارنة رمزية « و الرمزية هنا مفهومة بالمعنى الفني الضيق، باعتبارها طريقة في الأداء الأدبي ، تعتمد على الإيجاء بالأفكار و المشاعر وإثارتها بدلا من تقريرها و تسميتها أو وصفها.»³⁸ أي إخراجها من دائرة الجدل الفلسفي إلى الممارسة الفنية الأدبية.

إن المكان السردى ليس بالمدرک الحسى، و إنما هو متصور تجسده لغة السرد « لا يعرف و لا يدرك إلا من

يمكن تمثلها في بيت الزيواني الذي يقول عنه: « هي أول مرة أتعدى فيها عتبة بيتنا و الذي أتصوره من الداخل بيتنا سقيفيا ، مستطيلا طينيا ، سُقِفْتُ سقيفاته بخشب جذع النخل ، الذي تتخلله الكرائيف المرصوفة و المتخالفة بين الجذوع النخيلية. بابه خشبي صُنِعَ من جذع النخل المملسة بإبراء القادوم ، وصنع في اعلاه ، قفل يسمى أفكر.»⁴⁴ في هذا المقطع الذي يصف فيه البيت كعنصر تراثي ، تتخلله عناصر ترمز إلى زمن ما.

يتغير تصور القارئ للمكان في النص، من مجرد فضاء جامد لمسرحة الأحداث إلى مجموعة عناصر مشكلة لحياة الفرد التواتي ، فكل عنصر يحيل إلى نشاط و حركة معينة، و يرمز إلى شكل من أشكال التراث، فالبيت الذي وصفه الزيواني يحمل دلالات عدة ، غير الظل و الدفء. وهذا ما ينطبق على المقام أو المزار أين يتحول عند القارئ من مجرد مكان مادي أو مرقد للولي الصالح إلى صورة روحية عقائدية ورثتها الخلف عن السلف، تقتضي التوسل والتحصين و التبرك عادة تغرس في النفوس منذ الصبي، يقول الزيواني: « قلت فخرجت في هذه الخرجة الاولى محمولا لزيارة ولي قصرنا سيدي شاي الله ... كما قام بتزويرنا بالولي الصالح حفيده سيدي مول النوبة.»⁴⁵ يستلهم القارئ من خلال هذا المقطع رمزية قدسية المكان التي تشكل جزءاً و جانبا من الحياة الروحية للفرد التواتي.

8. خاتمة:

كان أن يلبس عباءة الرهبة المختلطة بالخوف»⁴¹ بوصف هذا المكان يعيش القارئ بين عالمين، عالم المعقول، و عالم اللامعقول هذا الاخير الذي تمثله الحكايات الخارقة و العجيبة و ذكر الجان . فما إن دخل الزيواني المغارة « حتى سمع صوتا نسويا لطيفا يناديه من الداخل ، أن ادخل ، فوجل، ... فدخل غير مسم. فإذا هو أمام امرأة باهرة الجمال ، لا عين رأت و لا خطر ببال أحد، لم ير في عالمه الانسي الزيواني ، امرأة فاتنة مثلها»⁴² إن الصفة التي يتصف بها هذا المكان وظفها الراوي في الانتقال بالقارئ بطريقة سلسلة من عالمه المؤلف إلى عالم غير مألوف حيث، فرض على القارئ مصاحبة الزيواني في هذه الرحلة و محاورة الجنية مروشة إذ يقول « و سألته عن حال أهل الزيوان وعن عالمه الإنسي الزيواني و قالت له أنها مروشة الساحرة الجميلة التي عشقها الشلالي وفتن بها»⁴³ وهي القصة المتداولة في إقليم التوات و التي تخلدها الأغاني التراثية الشلالية نسبة إلى الشلالي. إن حفرة الرابطة بصفتها مكانا تراثيا شكلت رمزا للأماكن و الحكايات الخرافية التي يعتقد بها المجتمع التواتي، كما أنها شكلت البرزخ الذي يفصل بين عالمين في نص الرواية.

قد نقف عند جمود صورة المكان في النص للحظة، لكن سرعان ما تتبدد هذه الصورة فتتحول من وراء العناصر التراثية المكونة لهذا الفضاء إلى حركات وأصوات يستطيع القارئ الاحساس بها و تصورها في حركة البناء وقطع جذوع النخل للتسقيف وغيرها، هذه الصورة

9. الهوامش:

- ¹ - ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثاني، دار صادر، بيروت، ص: 111-112
- ² - المصدر نفسه، ص: 199-200
- ³ - م، ن، ص: 200
- ⁴ - م، ن، نص: 200
- ⁵ - سورة الفجر، الآية: 19
- ⁶ - عبد السلام هارون، قطوف دانية، مكتبة السنة، ط 1، القاهرة، 1988، ص 11
- ⁷ - المرجع نفسه، ص: 11
- ⁸ - م، ن، ص: 11
- ⁹ - الطبري، تفسير الطبري، تحقيق، بشار عواد معروف و عصام فارس الحرساني، مجلد 7، ط 1، 1994، ص: 20
- ¹⁰ - حسن حنفي، التراث والتجديد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 4، 1992، ص: 13
- ¹¹ - سورة النمل، الآية: 16
- ¹² - الطبري، تفسير الطبري، ص: 552
- ¹³ - الصديق الحاج أحمد، مملكة الزيوان، فيسير للنشر، 2013، ص: 7
- ¹⁴ - المصدر نفسه، ص: 21_22
- ¹⁵ - م، ن، ص: 22
- ¹⁶ - م، ن، ص: 196
- ¹⁷ - ينظر المصدر نفسه، ص: 138
- ¹⁸ - عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، دار المعرفة، الكويت، 1998، ص 107
- ¹⁹ - ابن منظور، لسان العرب، المجلد 2، ص: 358
- ²⁰ - ينظر، أحمد أبا الصافي جعفري، اللهجة التواتية، منشورات الحضارة، ط 1، الجزائر، 2014، ص: 21 و ما بعدها
- ²¹ - ج. براون، و ج. يول، تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي ومنير التريكي النشر العلمي، جامعة المملكة السعودية، 1997، ص: 267

هي خاتمة البحث نسدها ستارا عليه ، لا ندعي فيها الكمال ، و لكن نعتزف فيها بالقصور و النقصان ، و حسبنا أنها محاولة؛ سعينا من خلالها الوقوف على أهم المميزات و الخصائص السردية الناتجة عن توظيف عناصر التراث التواتي في نص مملكة الزيوان لصاحبه: الحاج أحمد الصديق، و تحديد أهميتها كقيمة فنية إضافية في هذه البنية اللغوية، كما نستخلص أهمية النص باعتباره وسيلة لإبراز التراث و بعثه في صورة جديدة، بناء على ما ذكر نستخلص أهم النتائج و نقدمها في النقاط التالية:

- يتجلى التراث في نص مملكة الزيوان ؛ كوسيلة لإثراء النص و تحقيق غايات دلالية من جهة ، و كغاية ، تتمثل في بعث التراث و إخراجه في صورة لغوية من جهة أخرى.
- توظيف المعجم التواتي في المدونة حيث، شكلت ألفاظه انزياحا في اللغة المعتادة ، مما أكسب النص لغة هجينة أكسبته بدورها انتماء لفضاء و حيز معين.
- تحديد العلاقة بين النص و إطاره الزمني و إحالة القارئ عليه بفعل العناصر التراثية الموظفة.
- تحولت ممارسة طقوس العادات و التقاليد من حدود الواقع إلى أحداث و أفعال نسبت إلى شخصيات الرواية في إطار المخيال السردية.

- 22 - الرواية ص: 49
- 23 - المصدر نفسه ، ص: 49
- 24 - ينظر ، أحمد ابا الصافي جعفري ، اللهجة التواتية ، ص: 13
- 25 - الرواية ، ص: 76
- 26 - المصدر نفسه، ص: 53 - 54
- 27 - م، ن ص: 54
- 28 - م، ن ص: 49
- 29 - م، ن ص: 65
- 30 - صفاء خلوصي، الأمثال كمصدر لدراسة الفلكلور، مجلة التراث الشعبي، العدد 7، 1964، مطبعة المعارف بغداد ، ص 3:
- 31 - الرواية ، ص: 55، 56
- 32 - المصدر نفسه ، ص: 80
- 33 - م، ن ص: 79
- 34 - م، ن ص: 15
- 35 - م، ن ص: 63
- 36 - م، ن ص: 64، 65
- 37 - م، ن ص: 54
- 38 - محمد فتوح ، الرمزية ، في الشعر المعاصر ، دار المعارف ، القاهرة ، 1977 ص: 3
- 39 - حسين علام ، العجائبية في الأدب ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2001 ، ص : 169
- 40 - الرواية ، ص: 241
- 41 - الرواية ص: 15
- 42 - الرواية ص : 19
- 43 - الرواية ص : 21
- 44 - الرواية ، ص : 67
- 45 - الرواية ، ص: 69